قرآن يتلى لإنسانية ترقى

بصائر المعرفة القرآنية

أ.د. عبد السلام مقبل المجيدي

﴿ أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ ﴿١٦﴾ ﴾

الحديد: 16

بيني وبين أبي الحارث

بسم الله الرحمن الرحيم

{أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ} [الحديد: ١٦]

بيني وبين أبي الحارث

عبد السلام المجيدي

زارني الصديق الوفي.. الكريم الذكي الحيي أبو الحارث.. وبعد ذكر الأشواق وما به تسمو الأرواح وتعلو به إلى الآفاق.. استرسل يذكر مشفقاً قلقاً مسألةً شاعت وذاعت حتى صارت كالظاهرة في أوساط بعض طلبة العلم والدعاة المتبوعين أو المغمورين:

إنها ظاهرة الاغتياب والجرح والتعديل.. و.. يا أسفاه: النميمة ونشر الأباطيل.. وكل ذلك يتم باسم الغيرة على الدين و(التحذيرِ من زلل هذا، وتغير ذاك) لا على هيئة النصح الصادق بل على طريقة (تطفيف المطففين).

والعجيب أن من يُئخن جراح أخيه من هؤلاء الدعاة يُعدُّ ما يصنعه من غيبةٍ ونميمة ونشرٍ للإفك والبهتان.. من علامات تمسكه بالسنة عند فساد الأزمان.. فانظر كيف صار المنكر معروفاً والمعروف منكراً وضحك علينا الثقلان.. وشاع في أوساط بعض الدعاة أن يقوم فلانٌ بتصنيف إخوانه تصنيفاً مقيتاً بمحض الظن والمسارعة إلى هوى الشيطان..

يفعل ذلك ناسياً مفردات الدعوة التي تكون مع الكفار بالحكمة والموعظة الحسنة، والرفق، والتذكير برحمة الرحمن،

وغافلاً أنه مع الكفار.. يقول الجبار{وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا} [البقرة: ٨٣]، ومع الكفار يقول الله لعباده الأبرار قولاً قيماً عظيماً ثميناً {وَقُلْ لِعِبَادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ الشَّيْطَانَ يَنْزَغُ بَيْنَهُمْ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلْإِنْسَانِ عَدُوًّا مُبِينًا} [الإسراء: ٥٣]،

وناسياً أو متناسياً ما يقترفه أثناء ذلك من أهوال كبائر الذنوب.. في حق إخوانه المتكَلَّم عنهم رجماً بالغيوب.. كأنه لم يمر عليه قول النبي -ﷺ-: ((وما يعذبان في كبيرة [بلى] ألا إنه كبير))،

ثم إن أبا الحارث –وفقه الله– أشار إلى أحد المظلومين المتكَلم عنهم بالسوء والإفك المبين.. فبين مشفقاً منكراً قلقاً قول فلانٍ عنه كذا؟ ذاكراً ذمَّاً وتصنيفاً من فلان، ويخفي الذمُّ أهوالاً من سوء الظن والمسارعة إلى قالة الشر كأن المستشار لقائل ذلك مارد بن شيطان..

وتصورتُ نفسي مقام هذا المُتكَلَّم عنه، وجعلتُ أنظر وأقلب الطرف بين المتكلِّم المغتاب النمام الذي تسربل –وإن لم ينوِ– بصفات الحقود وبين السامع المدافِع الصديق العزيز الذي يبذل عند لقائي به الجهود.. لإقناعي بأنه دافع عني إزاء مقالة هذا الظانِّ المانِّ الجحود الكنود.. من نسي قول الله {مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ} [ق: ١٨]،

ثم إن أبا الحارث قام محباً يطلب مني تسطير كتاب.. على طريقة الردود وبذل الجواب.. لإيضاح الحقيقة وإزالة التهمة ورفع الارتياب.. فدونكم! تَدَبَّروا مآسينا الداخلية في أوساط الدعاة يا أولي الألباب..

فارقني الحبيب أبو الحارث –وفقه الله– وقد وقع في القلب ما وقع ..فقمت أغالب الشعور الممض بالألم.. من رفاق الدرب والصلاة والسنَّة والقلم.. وأتمثل أبا الحارث أمامي بقلبه الحنون، وأنا أجيبه عن نفسي لو كنت أنا من رُمي بسهام الظنون.. وقد حدث ذلك لأطهر البشر عبرةً لقومٍ يؤمنون.. فقال الله له: {فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَا يَسْتَخِفَّنَّكَ الَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ} [الروم: ٦٠] فمتى يذكر العاملون في الحقل الإسلامي ذلك..ومتى يرعوون.. ومتى يذَّكرون ؟

يا أهل السنة: رفقاً .. رفقاً بأهل السنة.. رفقاً يا أهل السنة بالسنة وبأهلها:

لماذا صار أبناء الإسلام من المنتسبين للحركات الإسلامية لا يملكون سلاحاً بتاراً.. إلا ما ينشر بينهم العداوة والبغضاء.. هذا السلاح المعوج البتار: الغيبة والنميمة وابتغاء العنت للبراء.. والتفنن في طلب إسخاط رب الأرض والسماء.. يزعمون الغَيرة على الدين وهم يتبعون –على الحقيقة– الأهواء.. فمن يكون مولاهم عند إشهار سلاح الاغتياب والإفك والافتراء.. من يكون مولاهم؟ الله أم الشيطان؟ زُيِّنت لهم سوء أعمالهم فعدُّوها تحذيراً وربما جهاداً {أَفَمَنْ كَانَ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّهِ كَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ} [مُحَمَّد: ١٤].

أبا الحارث –وفقك الله–: قد رأيتُ نصحك وإشفاقك فهلَّا قلتَ لمن كلمك:

لقد قلتَ كلمةً لو مُزجتْ بماء البحر لمزجته؟ بل هلا قلت له: والله إني لأحسب أن قول السيدة الطاهرة عائشة في صفية –رضي الله عنهما وأرضاهما– لا يساوي شيئاً إزاء معامل الاتهامات الخبيثة، ومصانع البهتان اليومية التي يبتكرها الجزَّارون المغتابون النمَّامون في أيامنا هذه.. يسترون بها عورة تقصيرهم وعدم القيام بواجبهم الأخوي نحو المسلمين.. ولكن بمَ يسترون هذه العورات؟ بعوراتٍ أقبح وأشنع.. وأردأ وأفظع: من إنتاج الغيبة والنميمة تارة بالجرح والتعديل، وتارة بإلقاء الشبهات والتضليل، وتارة بإظهار الغَيرة الكاذبة والسنة المصطنعة واختلاق الافتراءات والأقاويل.. وَيْلَهم ..وَيْلَهم .. بل يا رحمتاه لهم.. قاموا مقام الوليد بن المغيرة في الجمع المسلم السُنِّي الطاهر الكريم.. فسعى الواحد منهم سعيَ {هَمَّازٍ مَشَّاءٍ بِنَمِيمٍ (١١) مَنَّاعٍ لِلْخَيْرِ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ} [القلم: ١١، ١٢].. ويلهم ..بل يا رحمتاه لهم {أَلَا يَظُنُّ أُولَئِكَ أَنَّهُمْ مَبْعُوثُونَ (٤) لِيَوْمٍ عَظِيمٍ} [المطففين: ٤، ٥]

ولاحظ هنا جمال التعبير القرآني: (ألا يظن أولئك) فهو تعريضٌ بهم إن كانوا مؤمنين حقاً بلقاء الله.. فإن لم يكونوا مؤمنين بالبعث ولقاء الله فعندهم ظنٌ احتماليٌ بوقوعه أفلا يعدون له عدته وهو ما يسميه علماء التوحيد برهان الاحتياط، وأشار إليه الوزير في إيثار الحق على الخلق.

أبا الحارث يا أيها الحبيب المشفق وفقك الله: ما لأصحابنا بدلاً من أن يجمعوا أمرهم ورشدهم.. تمالأ بعضهم على توزيع (البطاقات).. بطاقات النجاة ومعرفة ما في القلوب وما يحدث في الصدور من الموبقات.. ينازعون ملك رب الأرض والسموات ..يقول أحدهم: فلان كلامه طيب، وما شاء الله عليه ..ولكن في قلبه دخن، وفي صدره من البدعة أسوأ العفن.. نعوذ بالله من هذا الزلل والإحن.. {وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُوعُونَ} [الانشقاق: ٢٣].. ألا يخافون يوم إلى ربهم يحشرون.

أبا الحارث –وفقك الله–: قل لهم:

أما كان أحرى بكم أن تستفيدوا من إخوانكم، وتستوعبوا طاقاتهم بدل أن تعلنوا عليهم حرب السلطة الرابعة من خلال الإعلام اللابس ثوب الدين: بزعم الغَيرة على الإيمان والمؤمنين .. ثم

تصنفونهم وفق الأهواء والظن الكاذب وإفك الظالمين.. {لَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنْفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا هَذَا إِفْكٌ مُبِينٌ} [النور: ١٢]

ومن العجيب أن واحداً يختلق الإشاعة الكاذبة ثم يرددها حتى يعتقد صدقها، ويناولها غيره وفي الجمع الكريم سمَّاعون له يظنون أنه على صراط مستقيم –وهو كذلك غالباً إلا في عبث الشيطان به في هذا الإلقاء الأثيم–.. {إِذْ تَلَقَّوْنَهُ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُمْ مَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُ هَيِّنًا وَهُوَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمٌ} [النور: ١٥].

–ثم إن كان بعض أحبتنا قد ابتُلوا بنشر الطويات.. والتفتيش عن الخفيات.. والاجتراء على الإخبار عن النيات.. فلماذا يتغافلون عن نشر ما يتكلم عنه العامة قبل الخاصة من الخير الذي تميز به هؤلاء المتكلَّم عنهم؟.

أم أنه يصدق عليهم قول الشاعر:

إنْ يسمعوا ريبةً طاروا لها فرحاً ... عني وما سمعوا من صالحٍ دفنوا
جهلاً علينَا وجبناً عنْ عدوّهمُ ... لبئستِ الخلّتانِ: الجهلُ والجبنُ
صمٌّ إذَا سمعُوا خيراً ذكرتُ بهِ ... وإنْ ذكرتُ بسوءٍ عندهمْ أذنُوا

أيها الحبيب –وفقك الله تعالى–: لقد عجبتُ من اختلاق بعض أصحابنا ومسارعتهم إلى الظنون الكاذبة والتهم الباطلة، والعيش على عرش الغيبة والنميمة وجرح الناس وأكل لحومهم.. خذ يا أيها الحبيب أمثلة من العجائب التي لا تكاد أن تصدق:

فئةٌ من الناس يحفظون القرآن حفظاً متيناً متقناً ويبتكرون طرقاً قوية في مراجعته وتعاهده.. ثم تسمع أحد الجراحين الجزارين القصابين يخرج واضعاً نفسه الناطق الرسمي باسم السنة (وعلمِ الغيوب، وشقِ القلوب) فيقول: ما فعلوا هذا إلا وهم يريدون أن يضللوا الناس ويفتنوهم بشدة حفظهم للقرآن.

والله ما أدري ما هذا المخلوق.. صار حفظ القرآن وتعاهده تهمةً عنده؟ ويمكن وضع مثل هذا القول موضع الاعتبار إذا كان حال من تكلم عنهم يثير الريبة في صلاتهم وأحاديثهم، ولكن الناظر

في حالهم يجدهم على خيرٍ من عبادةٍ وحديثٍ واتباعٍ للسنة وورعٍ في دين.. فهل ترى المجترئين على الاغتياب إلا قوماً عمين.

وأحد الجراحين القصابين الجزارين باسم السنة وأهلها رأى من حال بعض الشباب أنه يكثر ذكر الله والصلاة على رسول الله، والتذكير بذلك .. ففتح الخامل المتصنع فاه، واتبع هواه، ونسي قول مولاه فقال: هذا صوفي!

هل يمكن أيها الصديق العزيز أبا الحارث وفقك الله: أن تُصدِّق أن واحداً من الشباب المخبتين – فيما نحسبه والله حسيبه– وهو يُذَكِّرُ الناس في عظته قرأ آية سورة الأحزاب في الصلاة على خليل الملك الوهابﷻ.. ثم انهمر يذكر الأحاديث في فضل الصلاة على رسول الله ثم أردفها بقول الشاعر:

وإن ضاقت بك الأحوال يومًا *** فبالأسحار صل على محمد
يصلي الله رب العرش عشرًا *** على عبد يصلي على مُحَمَّد
وفى مائة يصلي الله ألفًا *** فعجل بالصلاة على محمد
ولا تترك رسول الله يومًا *** فما أحلى الصلاة على مُحَمَّد

فأسرع الجراح الجزار القصاب يتهمه في غيبته يقول فلان الله يهديه تغير ..تصوَّف!! فقال له أحدهم خائفاً وجلاً مما يسمع: كيف؟ قال: يكفيك ..اسمع .. الله يثبتنا بس.. يقول بالأسحار صل على مُحَمَّد .. –ويواصل متباهياً– الأسحار استغفار وإلاَّ صلاة على مُحَمَّد؟

صلى الله على مُحَمَّد.. صلى الله عليه وآله وصحبه وسلم

حسبك –يا أبا الحارث– من شرٍّ سماعُه ..فما ندري اعتراضه هنا خبلٌ أم خللٌ أم علقمٌ وحنظل؟

واضرب مثلاً لهذه المخلوقات التي أخشى والله ..والله أخشى عليهم من دخولهم في حديث المفلس: إذا رأوا فلاناً أكثر من الاستغفار وذكر اليوم الآخر وما أعد الله لقساة القلب والأشرار، أو أكثر من ذكر الجنة وكرامات الأبرار.. قام أحد مظهري العضلات يظهر الشرر من عينيه، ويهتاج رافعاً حواجبه ويديه، مبدياً عنفوان الغَيرة.. قائلاً زاعماً النظر في السيرة والسريرة: فلان ما

يريد إلا يصرف وجوه الناس إليه.. يكلمهم عن الجنة والنار.. تاركاً التوحيد والسنة وحق الله على العبيد!!

والعجيب أن هذا الجزار لا يرفُّ له جَفْنٌ وهو يرى المنكرات القطعية قد عمت، ولا يهتز له جنان وهو يرى ما يشيب له الولدان في سوريا وأمثالها، والقتلة والسفلة واللصوص ومحرفو الدِّين.. لا يرِدون على لسانه إلا في أندر الأحايين.. لماذا؟ لأنه يزعم أنَّ أمرَهم مفروغٌ منه ولكنه يحذر من الخطر المستتر في أوهامه الفارغة: من إخوانه الذين يفترض أن يكونوا له من المقربين.. ثم إذا لقي من تكلم عليه ابتسم وتمتم وتملق وهذرم، وحلف وأقسم: أنه يحبه ..وأنه كم ينافح ويدافع .. ومن أجله يكافح ويصارع، وحاله خُلُقاً يثير العجب، وحاله ديناً يجلب الكُرَب {أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِمْ مِيثَاقُ الْكِتَابِ أَنْ لَا يَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ وَدَرَسُوا مَا فِيهِ وَالدَّارُ الْآخِرَةُ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ} [الأعراف: ١٦٩].

وأنا أقول لهذا الذي يصر على إشهار سلاح الغيبة والنميمة: أيا صاحباه مالك؟

أنت طبيب قلوب الناس أفلا تتذكر.. أفلا تتذكر حديث أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ الذي رواه مسلم وأنت تُعَلِّمُه الناس أَنَّ رَسُولَ اللهِ صلى الله عليه وسلم قَالَ: «إن شَرَّ النَّاسِ ذُو الْوَجْهَيْنِ: الَّذِي يَأْتِي هؤُلاَءِ بِوَجْهٍ، وَهؤُلاَءِ بِوَجْهٍ».

فهلا فكَّر وتدبر: أفعلُه ينتسب إلى الجليس الصالح ولي الرحمن.. أم ينتسب إلى نافخ الكير جليس السوء والشيطان.. حاله كما قيل.. مما سارت به الطيور من الأماثيل:

وإخوان حسبتُهمُ دروعا .....×××.....فكانوها ولكن للأعادي

وخلتهمُ سهاما صائباتٍ .....×××..... فكانوها ولكن في فؤادي

وقالوا قد صفت منا قلوبٌ ...×××..... لقد صدقوا ولكن عن ودادي

وقالوا قد سعينا كل سعي .....×××..... لقد صدقوا ولكن في فسادِ

ومن عجائب الجراحين والعجائب جمة: أنني قرأت لبعضهم تحذيراً من صوفية ابن القيم وابن تيمية في مواضع من كتبهما!!

نشكو إلى الله جهلا من أحبتنا نشكو إلى الله منهم ما لقيناه

وما أبرئ نفسي إننا بشر نعشو إلى الله أحياناً وننساه

وخذ جهة أخرى من هؤلاء: فإن واحداً ممن أرجو أنهم {يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ} [الأعراف: ١٥٩] والله حسيبه ولا نزكي على الله أحدا– قام فقال كلمة الحق مع جماعته التي ينتسب إليها وناله من الأذى في سبيل ذلك ما ناله حتى ألحقه بعضهم في العداوة بإسرائيل، ثم قدر الله له أن يعرفه بعض مسؤولي بلاده وقياداتها الحاكمة إلى رأس الهرم فيها، فلم يثنه ذلك عن قول الحق معه حداً ناله من ذلك بعض الأذى.. وبدلاً من أن تفتخر به الجموع، ويعدونه نموذجاً يحتذى ويضاء له الإعلامُ (والشموع!).. جاء داعية نمامٌ قصاب .. يجمع الناس حواليه ناثراً الحُكْم والحكمة بينهم وفصل الخطاب.. فقال: انظروا إلى هذا المغرور .. الله يهديه ..أولاً اغتر لما كان مع جماعته الفلانية، وثانياً ارتفع غروره لما أُدْنِيَ من الحاكم، وقال للحاكم ما قال .. الله يهدينا –هكذا يكمل حديثه ويزيد– ..متى يكف الإنسان عن غروره؟ –طبعاً أنا أنقل القصة كما سَمْعتُ وهي لا تحتاج إلى تعليق بل تحتاج إغاثة هذا القلب الصفيق، وإنقاذ هذا الناصح المنقذ الواهم الغريق–

ولا أكتمك سراً أبا الحارث أنني في صغري في المرحلة المتوسطة أو آخر الابتدائية سألت أحد المشايخ –وأنا في الرياض– عن شيخٍ شابٍ عذب اللسان حلو الحديث يصغي له الجنان قبل الآذان، فأعرض الشيخ ونأى بجانبه، وقال ناصحاً: "ماذا تصنع به؟ دخلت مكتبته فرأيت عنده إحياء علوم الدين للغزالي" هذا ما قاله الشيخ الناصح، وما كنتُ حينها والله أعرف ما (إحياء علوم الدين) وإنما أتقلب في دروسي في الجامع الكبير في الرياض بين صحيح مسلم الذي كان يشرحه سماحة الشيخ ابن باز رحمه الله، وكتاب التوحيد وشروحه، فلما سمعتُ لمز الشيخ وغمزه ظننت الإحياء نوعاً من الإلحاد والإجرام.. والافتراء والصدِّ عن ما يصح في الإسلام، ولا أدري ماذا سيقول الحافظ العراقي الذي اكتشفتُ أنه خرَّج أحاديث الكتاب بعد ذلك؟!.

أبا الحارث: ماذا أقول؟ هل يجب على المصلي بعد الصلاة أن يقول صدقوني أنا لم أُصَلِّ إلا صلاةً لله على كتاب الله وسنة رسولهﷺ وفهم سلف الأمة.. وإلا فإن الجزارين سيشيعون عنه في الميادين أنه ما صلى إلا لأنه من المرائين؟

أبا الحارث وفقك الله: وأنا أُذَكِّر نفسي وإخواني بخلاصة ما قاله الصالحون حول تحريش الشيطان ..فقد قالوا:

كل من اغتاب عندك أحداً أو قال: إن فلانا قال فيك كذا وكذا ، أو فعل في حقك كذا، أو هو يدبر في إفساد أمرك ، أو في ممالأة عدوك أو تقبيح حالك، أو قد زل وضل وتغير دينه وأفل –مع أنه لا يوجد شيءٌ علني يدل على ذلك والأصل البراءة، والبناء على اليقين– ، فعليه ستة أمور:

الأول: أن لا تصدقه لأن النمام فاسق، وهو مردود الشهادة. قال تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا أَنْ تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلَى مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ} [الحجرات: ٦].
الثاني: أن تنهاه عن ذلك وتنصح له وتقبح عليه فعله متبعاً قول الله تعالى: {أَقِمِ الصَّلَاةَ وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنْكَرِ} [لقمان: ١٧]، وتذكره بقول:

لا تكشفن مساوي الناس ما ستروا		فيهتك الله ستراً عن مساويكا
واذكر محاسن ما فيهم إذا ذُكروا		ولا تعب أحداً منهم بما فيكا

الرابع: أن لا تظن بأخيك الغائب السوء لقوله تعالي: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ} [الحجرات: ١٢].

الخامس: أن لا يحملك ما حكى لك على التجسس والبحث والتحقق اتباعاً لقوله تعالى: {وَلَا تَجَسَّسُوا وَلَا يَغْتَبْ بَعْضُكُمْ بَعْضًا أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَحِيمٌ} [الحجرات: ١٢]، وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَﷺ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «إِذَا حَسَدْتُمْ فَلَا تَبْغُوا، وَإِذَا ظَنَنْتُمْ فَلَا تحقّقوا...)).

السادس : أن لا ترضى لنفسك ما نهيتَ النمام عنه، ولا تحكي نميمته فتقول: فلان قد حكى لي كذا وكذا، فتكون به نماماً ومغتاباً، إلا إذا استفحل الأمر وكان لا بد من الإخبار لمصلحةٍ راجحةٍ على نحو ما فعلت أم مسطح ﷺ، وقد قيل:

وسمعك صن عن سماع القبيح		كصون اللسان عن النطق به
فإنك عن سماع القبيح		شريكٌ لقائله فانتبه

أبا الحارث: أما كان لهم في رسول اللهﷺ وصحبه أسوة حسنة؟ أما وسعهم إذ هجمت عليهم الظنون، وفتنتهم السنون أن يأتوا من شكُّوا به فأظهروا له ما استشكلوه نصحاً له أو طلبا لإزالة شبهة انقدحت وتهمة علقت..

أما يخشون أن يكون حكمهم بين الغيبة والنميمة والفسق بفعلهم لا يخرجون عنها وما هم منها بمزحزحين، وقد ذكر عن عمر بن عبد العزيز أنه دخل عليه رجل فذكر له شيئاً عن فلان –أي اغتابه ونم عليه– فقال عمر: إن شئت نظرنا في أمرك فإن كنت كاذبا فأنت من أهل هذه الآية {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا} [الحجرات: ٦]، وإن كنت صادقاً كنت من أهل هذه الآية: {هَمَّازٍ مَشَّاءٍ بِنَمِيمٍ} [القلم: ١١]، وإن شئت عفونا عنك؟

فقال: العفو يا أمير المؤمنين لا أعود إليه أبدا.

وقد قال ابن الوردي:

مل عن النمام وازجره فما بلغ المكروه إلا من نقل

على أنني أضع بعض الأسئلة متعجباً حول مسارعة بعض الأحبة للطعن وسفك الدماء وتجزيئ لحوم البشر بالسواطير القولية ثم أكلها لا هنيئاً ولا مريئاً:

تُرى: ما الذي حملهم على ذلك؟

أضعفٌ في الدين؟

أم فراغٌ في الوقت، وقسوةٌ في القلب مع تشويش في اليقين

أم حسدٌ يغلي في الصدور زيَّنَته الشياطين في صورة الغَيرة على الدين –وحقيقته الغفلة عن خطورة الإفك المبين– فأظهروا الحسد على هيئة التحذير... دون أن يوجد شيءٌ يدل على ما يقولون: لا شريطٌ سُمِع ولا (فيديو!) رُفِع، ولا كتاب منير.

هاهنا أتذكر أن أبا الحسن الندوي –رحمه الله– أشار إلى سببٍ جوهريٍ من أسباب الأمراض القلبية والأخلاقية في رسالته النفيسة (ربانية لا رهبانية) هو الفراغ القلبي الذي يجب أن يُملأ باليقين والغَيرة الصادقة لا بادعاء المدعين وأهواء الظانّين، فإن لم يملأ بالحق واليقين ملئ بالظنون وتخرصات المتخرصين.

وقال رجل لبعضهم: إن فلاناً ما يزال يذكرك في قصصه بشر، فقال له: يا هذا ما رعيت حق مجالسه الرجل حيث نقلت إلينا حديثه، ولا أديت حقي حين أعلمتني عن أخي ما أكره، ولكن أعلمه أن الموت يعمنا، والقبر يضمنا، والقيامة تجمعنا والله يحكم بيننا وهو خير الحاكمين.

والله يا أبا الحارث: إني لأعجب من إخواننا هؤلاء.. أتألم منهم كما أرحمهم ذاكراً فيهم وفي أمثالهم قول ابن تيمية شيخ الإسلام.. العابد القانت الحجة على تعاقب الأيام: "أُوتُوا ذَكَاءً وَمَا أُوتُوا زَكَاءً وَأُعْطُوا فُهُومًا وَمَا أُعْطُوا عُلُومًا"، وبمناسبة ذكر ابن تيمية العالم العابد العامل فقد قام يوماً أحدٌ بذكر شيء مما تدبره في كتاب الله تعالى، وقال أرجو أن هذا مما فتح الله به في الفهم، فقام أحد مستمعيه يذمه وينسبه إلى تاركي الحق وشانئيه، والأول (من المؤمنين الغافلين) عن كيد النمامين والمغتابين وممارسي آكل لحوم البشر من الجراحين القصابين، فلما سئل الأخير عن برهانه في هذا الجرح وتلك الجراحة أجاب متباهياً مبدياً الغَيرة والخوف على الدين والمتدينين: أما سمعتموه يقول فتح وفتوح.. وهذه عبارات الزنادقة والملحدين!!!

أخبرني أبا الحارث: هل سمع آكل لحوم البشر هذا بقول الله تعالى {مَا يَفْتَحِ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا} [فاطر: ٢]؟ بل هل سمع ابن تيمية يقول في مجموع الفتاوى: "وَأَمَّا " الْعِلْمُ اللدني " فَلَا رَيْبَ أَنَّ اللَّهَ يَفْتَحُ عَلَى قُلُوبِ أَوْلِيَائِهِ الْمُتَّقِينَ وَعِبَادِهِ الصَّالِحِينَ بِسَبَبِ طَهَارَةِ قُلُوبِهِمْ مِمَّا يَكْرَهُهُ وَاتِّبَاعِهِمْ مَا يُحِبُّهُ مَا لَا يَفْتَحُ بِهِ عَلَى غَيْرِهِمْ. وَهَذَا كَمَا قَالَ عَلِيٌّ: إلَّا فَهْمًا يُؤْتِيهِ اللَّهُ عَبْدًا فِي كِتَابِهِ...".

أبا الحارث: غير أني أخاف عليهم كما أخاف على نفسي من أعظم من ذلك كله –وقد ابتلينا بأن صار لنا شيء من إرشاد الناس ووعظهم–: طبع على القلوب والصدور، والغفلة عن الحساب يوم يبعثر ما في القبور، وقد قال ابن القيم رحمه الله في أول مدارج السالكين: "درست معالم القرآن في قلوبهم فليسوا يعرفونها، ودثرت معاهده عندهم فليسوا يعمرونها، ووقعت ألويته وأعلامه من أيديهم فليسوا يرفعونها، وأفلت كواكبه النيرة من آفاق نفوسهم فلذلك لا يحبونها، وكسفت شمسه عند اجتماع ظلم آرائهم وعقدها فليسوا يبصرونها".

آمال محب:

أبا الحارث وفقك الله: أخيراً لا بد من أن أذكر عبارات المحبين بعد أن سَطَّرت آلام المظلومين، فها أنا أخاطبهم:

يا أيها الأحبة: أمركم في الدعوة والعلم هو الأمر الساطع زادكم الله فخاراً، وتقبل منكم، وإنما أنقم على نفسي الأمارة بالسوء وعليكم هذا الذي أحذر نفسي وإياكم منه.. فلماذا.. لماذا تسارعون لنشر ما يلقيه الشيطان من تهم دون أن تقوموا بحق الذبِّ ولا ببيان خطورة قالة السوء؟ لماذا لا تتضح لكم بشاعة مجتمع الدعاة المقتدَى بهم حينما يتحولون إلى مجموعة من الحسدة الحقدة المغتابين النمامين دون برهانٍ مبين، وأين درس حادثة الإفك التي قال فيها رب العالمين: {لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَكُمْ بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَكُمْ} [النور: ١١].

يا أيها الأحبة:

ألم تسمعوا وتُعَلِّموا الناس قول النبي –ﷺ– فيما رواه أحمد والطبراني: ((من ذب عن عرض أخيه بالغيبة كان حقاً على الله أن يعتقه من النار))؟.

ألم تسمعوا وتُعَلِّموا الناس قول النبي –ﷺ– فيما رواه البيهقي: ((من رد عن عرض أخيه كان له حجاباً من النار))؟.

ألم تسمعوا وتُعَلِّموا الناس قول النبي –ﷺ– فيما رواه أحمد والترمذي: ((من رد عن عرض أخيه رد الله عن وجهه النار يوم القيامة)).

ألم تسمعوا وتُعَلِّموا الناس قول النبي –ﷺ– فيما رواه أحمد وأبو داود: ((ما من امرئٍ يخذل امرأً مسلماً في موطن ينتقص فيه من عرضه وينتهك فيه من حرمته إلا خذله الله تعالى في موطن يحب فيه نصرته، وما من أحد ينصر مسلماً ينتقص فيه من عرضه وينتهك فيه من حُرمته إلا نصره الله في موطن يحب فيه نصرته))،

بل أيها الدعاة المتَّبعون .. أما تخافون من مثل قول الرسول المأمون ﷺ:

((ومن خاصم في باطل وهو يعلمه لم يزل في سخط الله حتى ينزع عنه، ومن قال في مؤمن ما ليس فيه أسكنه الله ردغة الخبال –عصارة أهل النار– حتى يخرج مما قال))،

والأحاديث صححها جمع من أهل العلم كما هو معلوم.

يا أيها الأحبة: قيل بأن سعيد بن العاص قال: "إني لأكره أن يمر الذباب بجليسي مخافة أن يؤذيه" هذا ذباب! فكيف بمرور الكلمات مثل القاذفات على المسامع ؟!

أبا الحارث: نعم قسوتُ في الخطاب، نعم.. آسف.. والله ما هذا لي بخلق.. والله ما أردتُ ذلك، ولقد أردتُ اتِّباعَ ما نُسِبَ إلى عمر ﷺ: نحن أمة تحيي الحق بذكره، والباطل بهجره، ولكنني متفاجئٌ من هذا الحجم المدهش لانتشار قالة السوء، بل والاحتفاء بها فعل همجيي صحف الإثارة، ولقد كنتُ أسمع قالة السوء يرددها دعاةٌ متَّبَعون في دعاة متبعين فأعرضُ عنها.. وأعجب من دينهم مالهم ما زالوا لها يُرددون، فإذا كان أطباء القلوب هم المصابون بالعدوى فكيف يداوون الجرحى، ويغيثون اللهفى..

يا أيها الأحبة: ما زلت أعتذر إليكم وما عنيت شخصاً بعينه إنما أذكر نفسي وغيري.. وما أردت بالكلمة الفراق، ولا التشنيع الذي لا يُطاق، ولكنني أردت بقوة الوصف والبيان إظهار بشاعة ما يزينه الشيطان لعباد الرحمن، وأنا –والله– أبوء بذنبي وأقرُّ بجُرمي ضارعاً خائفاً قلقاً إن لم يشملني الله برحمته وعفوه مغفرته.. وما عندي من الخلل أسوأ مما يعلم الخلق لولا أن في كرم الله ما هو فوق الأمل، وفي رحمته ما يستر الزلل، وفي عفوه ولطفه وعطائه وفضله ما هو فوق الرجاء والحِيَل.. هو

العفو الكريم {وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ } [يوسف: ٥٣]...

يا رب: نعوذ بالله من شرور أنفسنا، وسيئات أعمالنا.. الله! ما أجمل هذه الكلمات الصادرة عن رسول رب الأرض والسمواتﷺ.

قل لهم أبا الحارث وفقك الله أنني أقول: يا أحبتنا:

تعالوا بنا نطوي الحديث الذي جرى ولا سمعَ الواشي بذاكَ ولا درى

تعالوا بنا حتى نعودَ إلى الرضى وحتى كأنّ العَهدَ لنْ يَتَغَيّرَا

وَلا تَذكُروا ذاكَ الذي كانَ بَيْنَنا على أنّهُ ما كانَ ذَنْبٌ فيُذكَرَا

نسبتمْ لنا الغدرَ الذي كانَ منكمُ فلا آخذَ الرّحمنُ من كانَ أغدَرَا

أيها الأحبة المباركون: اجعلوا ما وقعتم فيه كما هي حقيقته (طائف من الشيطان) ثم (تذكروا) فإذا أنتم مبصرون، ولتكن مسائل النصيحة في مجمع المسلمين هي الواضحة.. متنزهين عن الغيبة أو النميمة الفاتنة الفاضحة، وقد قال الصالحون: "وَاعْلَم أَن من نصحك فقد أحبك وَمن داهنك فقد غشك":

فا اللهُ عنكمْ أينَ ذاكَ التوددُ وأينَ جميلٌ منكمُ كنتُ أعهدُ

بما بيننا لا تنقضوا العهدَ بيننا فيسمعَ واشٍ أوْ يقولَ مفندُ

تعالوا نخلِّ العتبَ عنا ونصطلحْ وعودوا بنا للوصلِ والعودُ أحمدُ

ولا تخدشوا بالعتبِ وجه محبةٍ لهُ بهجةٌ أنوارها تتوقدُ

وَلا نَتَحَمّلْ مِنّةَ الرُّسْلِ بَينَنا وَلا غُرَرَ الكُتبِ التي تَتَرَدّدُ

إذا ما تَعاتَبنا وَعُدْنَا إلى الرّضَى فذلكَ ودٌ بيننا يتجددُ

أبا الحارث: سأكتفي بهذا القدر فإن من الغبن الظاهر أن يضيع الإنسان وقته في تكلف الرد على فلان.. أو تتبع ما يقول فيه الثقلان، وهو لا يعلم بما يحكم فيه الجليل الرحيم الرحمن، ولقد روى ابن ماجة فيما صححه بعض أهل العلم عن عَبْد اللهِ بْن عُمَرَ ﷺ قَالَ: رَأَيْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَطُوفُ بِالْكَعْبَةِ وَيَقُولُ: مَا أَطْيَبَكِ، وَأَطْيَبَ رِيحَكِ، مَا أَعْظَمَكِ، وَأَعْظَمَ حُرْمَتَكِ، وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ، لَحُرْمَةُ الْمُؤْمِنِ أَعْظَمُ عِنْدَ اللهِ حُرْمَةً مِنْكِ مَالِهِ، وَدَمِهِ، وَأَنْ نَظُنَّ بِهِ إِلاَّ خَيْرًا.

اللهم إنا نسألك خشيتك في الغيب والشهادة، وكلمة الحق في الغضب والرضى، ونسألك لذة النظر إلى وجهك في غير ضراء مضرة ولا فتنة مضلة، اللهم زينا بزينة الإيمان، واجعلنا هداة مهتدين.

محبكم/ عبد السلام

٢٨جمادى١٤٣٤هـ